

رسالة غبطة البطريرك مار نصر الله بطرس صفير الميلاية

٢٠٠٢/١٢/٢٣

"وعلى الارض السلام" (لو ١٤: ٢)

"أنشودة الملائكة، ليلة الميلاد، تحمل الى الناس ما يتوقون اليه، منذ ان كانوا على الارض، من سلام ورجاء. وقد أعطانا القديس لوقا في انجيله بعض تفاصيل عن ميلاد المسيح، فأخبرنا ان يوسف والده بالتبني صعد من الناصرة... الى بيت لحم... ليكتتب هناك مع مريم خطيبته، وهي حبلى. وهما هناك، تمت ايامها لتلد، فولدت ابنها البكر، ولفته بالقمطات، ووضعته في مذود، لانه لم يكن لهما موضع حيث نزلا. وكان هناك، حيث نزلا، رعاة يحرسون في هجعة الليل مواشيهم، واذا بملاك الرب قد وقف بهم، ومجد الرب أشرق عليهم، فخافوا خوفا عظيما. فقال لهم الملاك: لا تخافوا، لأنى هأنا أبشركم بفرح عظيم يكون للعالم كله، لأنه ولد لكم المخلص الذي هو المسيح الرب، في مدينة داود. وهذه علامة لكم: تجدون طفلا ملفوفا بالقمطات، موضوعا في مذود. وفجأة ظهر لهم مع الملاك، كثير من جنود السماء، يسبحون الله ويقولون: "المجد لله في العلى، وعلى الارض السلام، والرجاء الصالح لبني البشر".

هذا هو المشهد المفرح والمحزن معا، انه مفرح لأن الله أتم وعده، وأرسل الينا ابنه الوحيد، ليرشدنا الى الطريق المؤدية اليه. وقد استقبله جند السماء، وبشروا العالم بالسلام والرجاء لمن يعرفون ان يعترفوا به رباً وإلهاً، ويمجدوه لانه وحده يستحق التمجيد. ولا سلام ولا رجاء ان لم ينبعا من قلبه الالهي.. انه إله حقا. والمحزن لأن ابن الله، سيد السماء والارض، يولد من بتول في مغارة حقيرة، ويوضع في مذود كأقصر ما يولد انسان. لقد اختار ان يولد في قرية مجهولة يومذاك، وشهيرة، اليوم، ويا للأسف الشديد، بما يرتكب فيها من مظالم، ويقع من قتلى وجرحى، ويسودها من احقاد وكراهية. وشاء ان يوضع في مذود حيوانات، ولم يجد حوله الا أمه وأباه بالتبني. فهو حقا في حاجة الى قمطات تلفه، ودفء انساني لم يجده الا لدى والديه. انه انسان حقا.

لقد أراد ان يدخل الدنيا كسائر الناس، وهو لا يملك شيئا من حطامها، وعاش عيشة فقرية، ليعلمنا ألا نتهالك على جمع المال، فنجعل منه رباً، على ما حذرنا منه بقوله: "لا يستطيع أحد ان يعبد ربين، فانه اما أن ييغض الواحد ويحب الآخر، واما ان يجل الواحد ويحتقر الآخر. فأنتم لا تستطيعون ان تعبدوا الله والمال". وعلينا ان نكتفي من خيرات الدنيا بما اكتفى هو به، اي الكفاف من خبزنا اليومي وان نخرج منها، مثمنا خرج هو منها، دون ان يترك وراءه شيئا من حطامها.

انه حقا إله وانسان، لذلك استطاع ان يكون المخلص، وقد عرف، وهو مكون بما فيه الانسان، ان هذا الاخير لا يمكنه ان يقوى على الخلاص بذاته، وأنه في حاجة الى من يخلصه أولا من ذاته، بعدما اصبح منقسما على نفسه بسبب الخطيئة الاصلية، وراح يصنع الشر الذي لا يريد، ويحجم عن صنع الخير الذي يريد، على ما يقول بولس الرسول: "الخير الذي أريد ان أفعله، لا أفعله. بل الشر الذي لا أريد ان أفعله، فاياه أفعل" وهذا يعني ان على الانسان ان يكون حذرا تجاه نفسه، اكثر منه تجاه سواه من الناس. وهو لن يقوى على ذلك الا اذا ظل قريبا من ربه، يصغي اليه في سره، ويعمل بوحى الهاماته، فيعامل الناس، كما يريد ان يعاملوه، على ما قال لنا الرب يسوع: "كل ما تريدون ان يفعله الناس لكم، افعلوه انتم لهم ايضا. هذا هو الناموس والانبياء ومن هنا تبدأ طريق السلام المنشود الذي بشر به الارض جند السماء.

أيها الاخوة والابناء الأعزاء، اننا نحن، والعالم كله، ننشد السلام، ولكننا، أنى اتجهنا، لا نلقى غير الانقسامات، والخصومات، والحروب. ذلك اننا لم ننشد هذا السلام من يناييعه. ويسوع المسيح وحده هو ينبوع السلام الدفاق. انه السلام الحق، على ما قال: "السلام استودعكم، سلامي خاصة أعطيك، لا كما يعطي العالم، انا أعطيك". وكل سلام آخر، هو سلام خداع، لانه اما ان يقوم على القوة، والبطش، واما على توازن القوى، والرعب، واما على المعاهدات المفروضة التي يذعن معها الضعيف للقوي، وهو لا يزال يتحين الفرص المؤاتية لينقضها ويخرج على موجباتها.

وأي سلام يمكننا ان ننتظره من حرب قد تندلع نارها على أرض منطقتنا، وبدأ الاعداد لها باستقدام الجنود والمعدات الحربية، والبوارج والطائرات والراجمات. ولا تزال هذه المنطقة عينها تعاني حربا مشتعلة على حدودنا الجنوبية، وفي كل يوم قتلى وجرحى وبيوت تهدم، ومدن تدمر. وهذا يجري على أرض كان من المفترض ان ينطلق منها السلام ليشمل العالم بأكمله. أفما دعيت مدينة القدس اورشليم، اي مدينة السلام؟ ولكن السيد المسيح قد سبق ان أذرنا بما ينتظرها من خراب بقوله لها: "يا اورشليم، يا اورشليم، يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها كم مرة أردت ان أجمع بنيك فيك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خرابا. وهذا هو مصير من يرفضون الله ويتكبرون لتعاليمه.

وفيما نرى النار تقترب منا، نروح نتهلئ بمشاحنات ومهاترات لا مكان لها وبخاصة في هذه الظروف الشديدة الصعوبة التي نمر بها، والتي بلغت معها الامور من التأزم ما بلغت. وهناك شعب يتظاهر بكثافة احتجاجا على تحميله ضرائب لا يستطيع بعد ان يتحملها. وبات في مجمله يئن من ديون باهظة ترهق كاهله، وكاهل أبنائه ومن بطالة تكاد ان تكون شاملة، ومن فقدان فرص عمل يورث الجوع، ومن انتهاك لحرمة مؤسسات تربوية لها قوانينها وأنظمتها، ومن غياب الشفافية في معالجة شؤون الدولة المالية، مما ألقى ظلا من الشك على بعض من يتولون الاحكام. وهذا كله مؤذ، يبعدنا كثيرا عن السلام المنشود.

وأنا اذ نناشد الجميع العودة الى ضميرهم وربهم ليتقوا الله في وطنهم ومستقبل أبنائهم، نسأل السيد المسيح بشفاعته والدته البتول، وفي ذكرى ميلاده بالجسد، ان يلهمنا الاقتداء بمثله، والتشبع من تعاليمه الانجيلية، ومدنا بالقوة لنضعها في حياتنا اليومية موضع العمل، وان نحظى دائما، مقيمين ومنشرين برضاه وبركاته".